وجه القمر

قصة بقلم زكريا تامر

كانت فأس الحطاب تهوي برتابة على جذع شجرة الليمون المنتصبة في باحة البيت ، بينما كانت سميحة جالسة قرب النافذة المطلة على الزقاق حيث تتصاعد بين الفينة والفينة صرخات شاب معتوه ، وتمتزج بأصوات الفأس . وكانت رائحة شجرة الليمون تتسلل الى الغرفة وتتغلغل في الهواء وكأنها شحاذة عمياء تطرق الابواب متوسلة بانكسار .

وتعالت صرخات المعتوه ، وتناهت الى مسمع سميحة متقطعة خشنة ، يكمن فيها حيوان متوحش غاضب ينادي مخلوقا ما هاجعا في شرايينها . وكان باستطاعتها رؤية المعتوه وهو يقفز في الزقاق ، وحوله بضعة اولاد يتصايحون ويرمونه بقشور البرتقال . وكانت سميحة واثقة من ان عينيه كنمرين مريضين غافيين على عشب ادغال مظلمة .

وكان والد سميحة رجلا هرما يعذبه المرض . وقد ضايقته رائحة شجرة الليمون فصمم على التخلص منها . واحضر الحطاب غير مكترث لتوسلات سميحة ، فشجرة الليمون صديقتها منذ ايام الطفولة ، وهي تزداد جمالا حين يقبل الشتاء وتتلألأ حبات المطر على اوراقها . وعندئذ يبدو اخضرارها مضيئا وساطعا كأنه سيشتعل بعد هنيهات .

وعادت صرخات المعتوه تتعالى وكأنها بكاء شجرة الليمون التي ستهلك بعد قليل ، ونما في لحم سميحة خوف مبهم . وخيل اليها انها تملك سماء مفعمة بنجوم ذات انوار شاحبة ليست الا احلامها الميتة ، فقد كانت سميحة في تلك اللحظة مجرد امرأة في مقتبل العمر ، طلقها زوجها منذ اشهر . وقد تكون زوجة صالحة ، تطهو الطعام ، وتغسل الثياب ، وتنظف الغرف ، وتستسلم للرجل الزوج متصنعة النشوة والمرح والحرارة . وعندما كان عمرها عشر سنوات صفعها والدها بقسوة لانه شاهد ثوبها منحسرا عن فخذيها . ولكنها حين اوشكت على الزواج علمتها قريباتها المتزوجات كيف يتحرك جسدها لحظة التقائه بالرجل ، ويصير صوتا متجاوبا مفعما بالتآلف والتناغم والشهوة المنتشية التواقة للرجل ، وكان زوجها يغضب ويحنق عليها ، ففي الليل وهي متمددة لصقه تهلع وتنكمش حين تلمسها يداه ، وتتحول الى لحم ساكن مستسلم دون حركة لثقل رجل ما . ولم يستطع الزوج العيش معها فقد كان يريد امرأة تتأوه ويرتعد لحمها اذ تستنشق رائحة رجل ناء .

وعادت سميحة الى بيت اهلها ، لتعيش مخذولة ، تساعد امها في اعمال البيت ثم تبدد بقية ساعات النهار جالسة قرب النافذة تراقب عابري الزقاق ، وكان الشاب المعتوه لايفارق الزقاق ، ويظل يصرخ ويقفز مطاردا الاولاد .

وكانت الفأس في تلك الهنيهات مازالت تجرح بحدها جذع شجرة الليمون مخترقة جسدها اكثر فاكثر . وكان صوت الفأس يدفع سميحة لان تحس بانها تفقد طفولتها شيئا فشيئا . ولقد كانت سميحة في الايام القديمة طفلة تضحك دون سبب ، وكان القمر يرعبها ، ولا تقدر على الاقتناع بانه مجرد قرص صلب ذي ضياء ابيض .

وسمعت سميحة صيحة حادة غريبة . فادركت حالا انها لابد صادرة عن المعتوه ، فتطلعت من النافذة فاذا بالمعتوه قاعد على الارض ممسك رأسه بيديه بينما الدم ينبثق من بين اصابعه ، وكان الاولاد قد لاذوا بالفرار بعد ان قذفه احدهم بحجر .

وابتعدت سميحة عن النافذة ، خاضعة لرعب خفي . وارتمت على الاريكة ، وامتزج عطر الليمون واصوات الفأس بصراخ المعتوه ، واغمضت عينيها مستسلمة لارتعاشة قاسية . واحسبت أن ثمة اصابع تضغط على حنجرتها مانعة عنها الهواء ، وأرادت الصراخ مستغيثة قبل ان توشك على الاختناق ، وزحف ثقل مؤلم مجتازا جسدها كله ثم انزاح تاركا خلفه سميحة تستعيد الهواء والسكينة ، واخذت سميحة تلهث بسعادة يخالطها بعض الخوف ، وابصرت بغتة الرجل الغامض الذي اعتاد ان يقتحم احلامها في الليل . وكان رجلا طويل القامة ، عاريا تماما ، وجلده مغطى بطبقة كثيفة من الشعر الاسود الخشن ، ولكم تاقت لان تلمسه غير انها لم تستطع التحرك .

وكانت الفأس مازالت تضرب بحقد جذع شجرة الليمون . وابتسم الرجل الغامض ، وهو واقف قرب الباب ، وتألقت عيناه ، وقالت سميحة بصوت متحشرج : ابتعد .

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة ، وبدت اسنانه بيضاء ، وشفتاه كدم قرمزي متجمد ، وودت لو يقول اية كلمة ، ورغبت اشد الرغبة في سماع صوته الذي لا بد ان يكون كهدير موج يرتطم بصخور شاطيء متناه في البعد .

وحاولت سميحة الهرب حينما ابتدأ يدنو منها ، وقالت ثانية : ابتعد .

فلم يأبه الرجل لها ، وتابع اقترابه منها . ومد يدا لها خمس اصابع ، ولمس شعرها المتهدل ، وتحركت شفتاه دون ان ينبعث منهما أي صوت ، ولكن سميحة كانت متيقنة من انه قال لها : حبيبتي ..

واشتد صراخ المعتوه ، وأمسك الرجل الغامض بيد سميحة ، وجرها فتبعته دون مقاومة بينما هيمنت عليها طمأنينة عذبة ، انها تعرف يده ، تعرفها جيدا ، اين رأتها من

قبل ؟ لم تذكر ، حاولت التذكر، وقادها الرجل واجتازا معا السهول الشاسعة حيث يتلاقى ثلج الشتاء وشمس الصيف وزهر الربيع ، ووصلا الى منزل متهدم ، سميحة تعرف المنزل ، لقد رأته من قبل . اين اين ؟ وانهزمت العتمة ، وبدأت تتذكر بشكل خاطف ، انه منزل متهدم مهجور كان يقبع كشبح في فم الزقاق ايام كانت صغيرة السن .

وتطلعت الى الرجل فوجدته قد تبدل متخليا عن فتوته وأمسى كهلا ، فعرفته على الفور ، ولقد كان عمرها لايتجاوز الثانية عشرة حين كانت عائدة الى البيت ، وكانت آنئذ عتمة المساء بدأت بالانسياب في الطرقات ، وعندما وصلت قرب المنزل المتهدم المهجور ، اعترض طريقها رجل كهل ، وأمسك يدها بقسوة ، وقال لها بصوت مبحوح:

ـ سأقتلك اذا صرخت .

وجرها بسرعة الى داخل المنزل ، وعراها من ثيابها وكان نهداها وقتئذ فجين ، ولكن لحمها ناعم مكتنز ، وكان جسد الكهل له رائحة حريق منطفىء . ورمقت سميحة الرجل الكهل بلهفة فقد عاد اليها اثر انتظار مديد ، ورغبت بان تهرع نحوه ، وتلقي رأسها على صدره ، ولكنها سمعته يقول لها : سأقتلك اذا صرخت ، ولم تقاوم انما كانت مسحورة بالحنو العجيب المنهمر في اعماقها ، وظلت مستلقية على ظهرها منتظرة جسد كهل له رائحة حريق منطفىء .

وتصاعد من جديد صراخ المعتوه ، وحاولت سميحة المستلقية على الاريكة تجاهله ، غير ان الصراخ استمر يتعاظم ويزداد ضراوة فلم تستطع الصمود ، فهبت واقفة ، وهرولت نحو النافذة ، واطلت على الزقاق ، فوجدت المعتوه مازال قاعدا على الارض ، وكان يقاوم الحلاق والبقال اللذين يحاولان تضميد رأسه وربطه بقطعة قماش بيضاء بينما تحول صراخه الى عويل حيواني شرس .

ولم تحاول سميحة الرجوع الى الاستلقاء على الاريكة وكان بمقدورها عندئذ العودة والاختباء في المنزل المتهدم المهجور حيث عتمة المساء والرجل الكهل .

وحدقت الى المعتوه الذي كان يتمرغ على الارض محركا ذراعيه ورجليه . واحست ان الرجل الكهل رحل وهو يحتضر في مكان ناء . وتمنت لو يتحول المعتوه الى طوفان من المدى يجتاح جسدها ممزقا لحمها على مهل ثم يتركها وجها لوجه مع الرعب الهرم .

وعادت سميحة الى التمدد على الاريكة ، واطبقت جفنيها : ستكون ذات يوم وحيدة في البيت ، وستغري المعتوه بالدخول ، وستتعرى من ثيابها دون خجل وستعطي نهدها لفم المعتوه ، وستضحك ثملة حين يحاول قضم حلمته ، وستطلب منه بصوت لاهث ان يعض لحمها او يغرس اسنانه فيه حتى ينبثق منه الدم ويلطخ شفتيه ، وعندئذ ستلعق بلسانها شفتيه بكثير من الضراوة والحنان .

وتوقفت الفأس لحظات عن الانقضاض ، ثم سمع صوت وقوع شجرة الليمون وارتطامها بارض باحة البيت في ضجة مالبثت ان اضمحلت .

وابتسمت سميحة اذ تذكرت القمر فلن يرعبها مطلقا بعد ان شاهدت وجهه بلا اقنعة .

دمشق — زكريا تامر

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تأليف مرغريت دورا
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تأليف لويجي بيراندللو
ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبة

تأليف جان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت